كيف اغتنى جدي

للكاتب الهولندي: إسرا زانتيف

كان ذا روح مرحة عذبة... جدي أقصد... على أنه فيما يبدو كان في بعض شؤونه حينما احتاج ذكاؤه إلى الرعاية لينمو ويتطور كبقية خلق الله. ولا زلت أتساءل حتى اليوم كيف استطاعت جدتي الاعتماد عليه كمصدر رزق لتنشئة أسرة!

كنا جميعاً نسكن في بيت واحد... بضعةٌ من عجاف هزل... ولم تكن هناك أي محاولة من الكبار لإقناعنا بالأكل وترغيبنا فيه... بل أنني شخصيًّا كنت أتناول ما يتيسّر من الغداء مع أمي قبل أن ألتحق بجدتي في الدور العلوي فألتهم وجبة أخرى أتوجه بعدها إلى عمتي «بيرثا» ـ وهي تقطن عنا غير بعيد ـ فأشاركهم في القضاء على ما يتهيّأ.

ولم أعرف طعم التفاح الناضج إلا بعد أن بلغت الخامسة عشر والتحقت بسلك التمهن لدى أحد التجار، إذ إن التفاح في قريتنا لم يكن ليحلم بأن يترك حتى ينضج... وكنا نخرج ألسنتنا لشدة حموضته على أن ذلك التفاح كان ألذ ما ذقت في حياتي.

ولم أشعر بالشبع والارتياح في طفولتي إلا مرةً واحدة فقط حينما نسيت عمتي «بيرثا» قفل باب المستَودع فتسللت إليه وازدردت اثنتين وعشرين قطعة من الكعك المقلي «الدونتْ» ولم تغفر لي عائلتي ذلك أبداً فكانوا كلما التم شملنا ـ بعد تلك الواقعة بسنوات ـ يصرخون إما رأوني: انتبهوا إلى الكعيكات!

عطفاً على كل ما سبق فيما يختص بما كنا عليه من حاله مادية لا تسر صديقاً أو عدوًّا فإن للمرء أن يتخيل انطباعنا ذات يومٍ مشرق جميل حينما ابتسم الحظ لجدي فوقع اصطدام للقطار الذي كان يقلّه!

ولو أن ذلك قد حدث لك ونجوت فإنك تكون قد بلغت أعتاب الغنى؛ إذ إن شركة السكة الحديد كانت ستعوضك بسخاء. ولذا فإن ركاب القطار المحظوظين قاطبةً كانوا على دراية بما يتحتم عمله، وهكذا فقد تساقطوا على الأرض وهم يئنّون ويتلوون كمارد قطع رأسه في انتظار عمال الإنقاذ ليهرعوا إليهم بالزحّافات والنقالات... إلاّ جدّي!. كانت شهيته أفضل من شهياتنا جميعاً... ولم يحدث وأن تخلّف عن إحدى الوجبات قطّ في حياته فلماذا يبدأ الآن في ذلك! كلاّ... ليس بسبب حادث قطار تافه أبداً سيدي! ذلك لن يكون! ولذا فإن جدي قد اقتطع لنفسه غصناً قوياً جعل منه متكأً وعاد إلى البيت راجلاً في رحلة استغرقت ثلاث ساعات. ووصلت أخبار حادثة القطار ـ إبان ذلك إلى قريتنا على أن ما أراح الأفئدة وأحلّ الطمأنينة محل الفزع أن البرقية التي وصلت كانت قد ذيِّلت بـ «ولا خسائر في الأرواح».

لن أستطيع أبداً أن أصور تلك الانطباعات الحائرة المذعورة التي ارتسمت على محيا جدتي وهي ترى زوجها يدخل مترنحاً وقد تعفّرت بالتراب ملابسه وبدا عليه شيء من التعب وإن كان يبتسم في براءة وحبور؛ إذ إنه قد وصل في موعد العشاء تماماً! لمحت ـ أول ما لمحت ـ تعابير الارتياح على قسمات جدتي لرؤية بعلها وقد عاد سالماً معافى، على أن مشاعر الغضب قد مازجت ذلك ـ بعد ذلك ـ ليظل الانطباع النهائي الطاغي... فقد أيقنت المسكينة بأن جدّي قد أضاع فرصته الوحيدة للدخول في عداد الأثرياء، ولذا فقد تحولّت في ثوان إلى إعصار هادر. وقبل أن يعي جدي ما حصل وجد نفسه في سريره وقد انفصل عنه بنطاله ولم تجدِ توسلاته المتكررة نفعاً فقد كان سيل زوجته قد بلغ الزّبى ـ وتتابعت الأحداث سراعاً ألقت جدتي على رأسه فوطة رطبة فيما هرولت أمي باحثة عن الدواء الوحيد لدينا! زيت الخروع!.

وتعالى صراخ جدي في رعب وحاول الاختباء داخل الأغطية الكثيفة، لكن أمي سارعت بإغلاق أنفه وصب زيت الخروع الرهيب في فمه وشعرتُ بالشفقة عليه... يا للرجل المسكين إن ما كان يحتاج إليه حقاً هو عشاؤه ولكن ما الذي بوسعه أو سواه عمله حينما تزمع زوجته وابنته أمراً!

ما أن تحقق لهما ذلك حتى بعثتا في طلب الطبيب فهرع أحد الأطفال يدعوه على عجل! ولما أجرى له فحصاً شاملاً وأوشك على إزجاء عبارات التهنئة على ما يتمتع به من صحة ممتازة... بادرت أمي من فورها إلى اتخاذ موقعها في ساحة الوغى! بدأت أول ما بدأت بفرد قامتها... أربعة أقدام وعشر بوصات، وأوضحت له بنبراتٍ حازمة جادة بأن جدي قد تعرض إلى صدمة عنيفة وارتجاج في مخه ـ إن كان ثمة مخ هناك ـ جراء الحادث، وإلا فكيف يفسّر الطبيب سبب تخلي جدي عن أثمن فرصة قد تمر بإنسان لترفعه إلى أعتاب ذوي الأملاك والأطيان... ثم... لا يأبه بذلك فالغنى والفقر لديه صنوان!

وألقى الطبيب على أمي نظرةً فاحصة... وما أن قرأ معاني الإصرار الذي لا يتحول حتى أيقن ـ بحكم علمه المسبق بخصالها أن لا بد مما ليس منه بد. فما كان منه سوى الإذعان لأمرها، وقبول ما أبدته من تشخيص للحالة قبل أن يغادر المكان.

وتلا ذلك أوان الانتظار. بذلت جدتي وأمي غاية جهدهما في سبيل إبقاء جدي في سريره، وأعادتا على مسامعه ما يجب أن يتفوه به وما لا يجب حين يفد مسؤولو سكة الحديد. فما كان من العبد لله إلا أن هزَّ رأسه في هدوء... واستسلام ووعد بأن يتعاون في هذا السّياق.

ولكن هل حاولت يوماً إرغام سمكة على البقاء في السرير؟ تملص جدي منهما أكثر من مرة. وعندما أخفيتا بنطاله رشى أحد الصغار فجلبه إليه وغادر سريره... على أنه ما أن فعل حتى سمع جلبة الجمع المنتظر خارج البيت، فأطل من النافذة يستجلي الخبر ولمح رجال التحقيق في حادثة القطار وخلفهم وقف أهل القرية طرًّا يترقبون ما سيؤول إليه الأمر. وسارع أهل المنزل بإلباس جدّي حلته كاملةً وكذا حذاءه ثم دفنوه في كمٍّ من الأغطية حتى ذقنه... وكانت الستائر مسدلة وجو الغرفة الدامس يعبق برائحة زيت الخروع حين سمح للمحققين بالدخول.

وبدا للوهلة الأولى أن جدي كان قد نسي التعليمات المكررة برمّتها، إذ إنه رحّب بالقوم بحرارة مهنئاً إياهم على ما يتمتعون به من حسن مظهر، ثم شرع في حديث مرح طويل عن الطقس والمحاصيل. وعندما تسنى لطبيب شركة السكة الحديد ـ بعد جهد ـ أن يسأله عن موضع إصابته أشارت أمي في ذعر إلى رأسها.

ـ حسناً! رد جدي بابتسامة هادئة وديعة:

ـ لا أعتقد أنني أشكو من إصابة لا يمكن لمائة ألف جنيه علاجها! وأغمي على أمي في الحال... سقطت على الأرض من فورها فيما بعثت جدتي عدداً من صرخات الهلع قبل أن تعدو خارج الغرفة. أما مأمورو التعويضات فقد غرقوا في ضحك عميق. وبعد أن تمالكوا أنفسهم وعاد إلى أمي وعيها دفعوا لجدي مبلغ خمسة آلاف جنيه ليصبح بذلك أغنى أهل القرية. على أنه وحتى اليوم الذي غادر فيه عالم الأحياء لم يستطع معرفة السبب الذي جعلهم يدفعون له ذلك المال.